* جـليل البندارى *

«الساخر الفنى»

* لقد أدى جليل البندارى دور الساخر على أتم ما يؤديه فنان يحـب الحـياة و يسخـر منها ، و يخاف الموت و يسخر منه ، و كأنه ينتصـر على الحياة والموت جميعا ..

محمد زكى عبد القادر

obeikandl.com

obeikandl.com

* ***جليل الدين محمد البندارى (جليل البندارى) ..***

*ولد يوم الخميس **(٢٦من صفرعام ١٣٣٤ هـ ـ الموافق ٢١من ديسمبر سنة ١٩١٦م)** ..

*خريج التعليم الفنى والتليفونات ..

* التحق بأخباراليوم فى أول فبراير سنة **(١٩٤٩)** .. فعمل صحفياً فيها إلى أن أصبح رئيساً للقسم الفنى بها ..

* كان ناقداً ، وعلماً من أعلام الساخرين فى مصر ..

* **من مؤلفاته :**

٠ - « راقصات مصر » سبتمبر سنة **(١٩٥١)** ..

١ - « أسرار النجوم » سنة **(١٩٥٧)** ..

٢ - « عبد الحليم حافظ : جسر التنهدات » سنة **(١٩٦١)** ..

٣ - « أنا و النجوم » سنة **(١٩٦٥)** ..

٤ - «عبد الوهاب : طفل النساء المدلل » ..

٥ - « شارع الذكريات » ..

٦ - « شفيقة القبطية » ..

٧ - « اقتلنى يا حبيبى » ..

٨ - مسرحية : « بمبة كشر » ..

٩ - قصة فيلم : « منتهى الفرح » ..

١٠- قصةفيلم : « سلطان » ..

obeikandl.com

١١- قصة فيلم : « الآنسة حنفى » ..

١٢- قصة فيلم : « تمرحنة » ..

١٣- أوبريت: « وداد الغازية » ..

* توفى يوم الاثنين (**١٨ من رمضان عام ١٣٨٨ هـ ـ الموافق ٩ من ديسمبر سنة ١٩٦٨**) ..

* * *

obeikandl.com

*من آثاره :

(أنا و النجوم (١))(*)

* قال لى الدكتور «عبد السلام البربرى» بعد أن أجرى كشفاً دقيقاً على حنجرتى إننى أشكو من ورم فى الأحبال الصوتية ..

* فسألته : **ولماذا تصاب الأحبال الصوتية بالورم ؟**

* فقال : **من الخناق والزعيق** ..

* ثم نصحنى بألا أتشاجر مع أحد ، ولا أتكلم بصوت عال، أو بصوت منخفض لمدة أسبوعين على الأقل ..

* فضحكت وقلت له: إننى أتناول ثلاث وجبات من الخناق فى كل يوم: مرة مع زوجتى فى الصباح .. ومرة مع جلال عارف سكرتير التحرير .. ومرة مع حسن عمران الساعى بالدور العاشر..

* وقلت له : **وبدون هذه الوجبات الثلاث من الزعيق والخناق أشعر بأننى انتقلت إلى العالم الآخر** ..

* وقلت له : **إن الخناق والزعيق هما عصب الحياة .. فكيف تحرمنى من ألذ متعة فى الدنيا ؟**..

* وأمضيت أول يوم فى هدوء .. كأننى صائم رمضان .. وعندما مالت الشمس للغروب ، أحسست بطلقة مدفع الإفطار .. وفتحت شهيتى للخناق و الزعيق ..

(*) الأخبار ـ ١٩٦٥/١٠/١٧

(أنا .. والنجوم (٢)) (*)

* أصيبت سيارتى التى تعاشرنى منذ سنوات طويلة بالذبحة ..

* قال لى الميكانيكى : إنها مصابة بانسداد فى الشرايين ولغط فى الموتور ، واكتشف عيوباً أخرى فى الفرامل وكل مكان فى جسدها ..

* وقال لى : إن تكاليف العلاج تزيد على ثمانين جنيهاً..

* وأنا رجل أعيش يوماً بيوم ، وليس عندى رصيد للطبيب ولا رصيد للميكانيكى ..

* فاضطررت إلى أن أفكر فى قصة جديدة ..

* وأنا لا أكتب القصة إلا إذا دعتنى إليها الظروف المادية السيئة..

* وبغيرهذا لا أكتب القصة أبداً..

* فكل الروايات التى كتبتها .. إما من أجل سداد دين قديم أو كمبيالة مستحقة أو إيجار البيت الذى يتراكم بالستة الشهور ..

* ولقد تولت «تمر حنة» و «شفيقةالقبطية» و «وداد الغازية» و «شوق» ، سداد معظم ديونى ..

* وقبل أن يبدأ الميكانيكى فى العلاج ، جلست معه نفكر فى الشخصية الجديدة التى يمكن أن تساهم معى فى تكاليف هذه الجراحة العاجلة..

* وذهبت إلى دار الكتب .. أو البنك الأهلى الذى أحتفظ فيه برصيدى الحقيقى ..

* * *

(*) الأخبار ـ ١٩٦٥/١٠/١٧

(أنا . . و النجوم (٣))

* جاءنى من محمد كامل بالمنيل أن عبارة : «سارى عسكر» التى أطلقها المصريون على بونابرت أثناء الحملة الفرنسية ، هى فى الحقيقة (سر عسكر) وليست سارى عسكر

* وقال إن كلمة (سر) معناها رأس أو قمة ، وإنها كلمة فارسية مستعملة فى اللغة التركية ..

* وقال إن من هذه الكلمات - مثلاً - كلمة (سربوس) أى غطاء الرأس التى حرفت بعد ذلك و أصبحت طربوش ..

* والذى أعلمه أن (سر عسكر) هى رتبة تركية كانت تستعمل قبل الحملة الفرنسية بعشرات و مئات السنين ..

* أما سارى عسكر أو صارى عسكر فهو اللقب الذى كان ينادى به بونابرت فى مصر .. ولم يذكر الجبرتى أو أى مؤرخ آخر شيئاً عن كلمة (سر عسكر) ..

* وأشكر الأستاذ محمد كامل على اهتمامه بهذا الموضوع ..

* * *

obeikandi.com

(أنا.. و النجوم (٤))(*)

صورونى بالأشعة عشرات الصور .. وسحبوا منى عشرات السنتيمترات من الدم .. ثم جاءت الملازم أول عفت ذات الابتسامة الجذابة ، وحاولت أن تسحب من الوريد كمية جديدة من الدم فلم تعثر له على أثر ..

وعشت ثلاثة أيام بلا نوم و بلا يقظة وبجوارى أجهزة مخيفة ، وأجهزة دقيقة .. وكلها للقلب فقط ..

وكلما طلبت شيئاً عادياً ترامت إلى كلمة (لا) بالفم المليان .. وفجأة ـ وبعد أن انتقلت إلى الدور الثالث ـ فوجئت بفتاة اسمها (محاسن الصدف) تدخل الغرفة لتسألنى عن وجباتى ..

فقلت لها : إننى جعان باستمرار و نفسى مصدودة عن الطعام باستمرار ..

فأخذت بلباقتها توفق بين الاثنين حتى تصورت أنها نجحت فى مهمتها. وعند الغذاء تكرم «محاسن» أو تُهان ..

* * *

*الأخبار ١٩٦٨/١١/١٤

(أنا .. والنجوم (٥))

* عندما سافرت إلى بيروت بالطائرة فى نوفمبر ١٩٦٣ لحضور مهرجان السينما الدولى .. فوجئت بإحدى المجلات اللبنانية تندفع إلىَّ من تحت عقب الباب ..

وأخذت أقلب فى المجلة المصورة ، فوجدت فيها صورتى منشورة على صفحة كاملة .. و تحقيقاً صحفياً معى ..

ثم قرأت اسم المحرر الذى كتب هذا التحقيق ، فإذا به نبيل البرادعى..

وبعد ربع ساعة اتصل بى عامل التليفون بالفندق وقال لى : إن نبيل البرادعى يرغب فى مقابلتك ..

واستقبلت الصحفى الجرىء الذى أجرى معى تحقيقاً صحفياً .. قبل أن يرانى و قبل أن يعرفنى .. بل قبل أن أصل أنا إلى مطار بيروت ..

وسألنى نبيل البرادعى عن رأيى فى التحقيق الصحفى فقلت له : هذا تزوير.. فقال:

ـ أنا لم أزيف حديثك .. و إنما نقلت إجاباتك ، و آراءك من تحقيقاتك فى «أخبار اليوم» و «آخر ساعة» وكلها صحيحة مائة فى المائة ..

ثم قال:

ـ وكل ما فى الأمر أننى وضعت أسئلة جديدة لإجابتك .. لهذا خيل إليك أننى مزيف ..

فسألته :

– **هل استأذنت منى فى نشر هذا الكلام؟ ..**

قال : **لا ..**

لقد تذكرت هذه القصة وأنا فى طريقى إلى المطار .. إلى بيروت لأساهم مع جاجارين و تيتوف فى ارتياد الفضاء.. (*)

* * *

---

* الأخبار ١٩٦٤/٨/١٤ ..

obeikandl.com

(أنا .. والنجوم(٦))

* قبل أن تموت أمى بسنة واحدة اكتشفت ميولى نحو الصحافة بطريق المصادفة ..

و قالت لى : إننى أفضل أن أراك حداداً أو ميكانيكياً أو نجاراً على أن أراك صحفياً ..

و قالت لى إن مهنة البحث عن أخبار الناس و نشرها فى الجرائد ليست المهنة التى يعيش منها الإنسان و يأكل اللقمة الحلال ..

و أحرقت مكتبتى الصغيرة التى كلفتنى دم قلبى بحجة أننى أستهلك النور بالليل و هذه الكتب لا فائدة فيها ..

وكانت تقول لشقيقى الأكبر عز الدين : إن فائدة الجرائد الوحيدة هى تنظيف زجاج النوافذ ..

وقالت لى: إن الصحافة « نميمة » و الصحفيين سيدخلون النار، وأنت منهم .. (*)

* * *

* الأخبار ١٩٦٤/٩/١٧

(أنا .. والنجوم (٧))

* وأنا أشاهد مباراة كلاى وليستون عادت بى الذاكرة إلى عشرين عاماً مضت .. ففى مثل هذه الأيام من عام ١٩٣٤ .. تسللت من فراشى فى التاسعة مساء .. و خرجت من البيت على أطراف أصابعى حتى لاتشعر بى أمى ،وأنا أخرج فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ..وذهبت إلى نادى جمعية الشبان المسلمين لألعب مباراة فى الملاكمة على بطولة مصر .. فقد كنت قد هزمت بطل القاهرة ميشيل كناريدس.. وجاء دورى لألعب مع زكى علاج ـ مأمور امبابة الآن ـ وكان فى ذلك الوقت بطل وزنى .. و تأخرت مباراتى معه حتى الواحدة صباحاً ، فقررت أن أنسحب قبل المباراة خوفاً من بطش أمى ..

ورآنى عبده كبريت بطل مصر فى الوزن الثقيل وأنا أهم بالخروج .. فأمسك بى و أنبنى لانسحابى ولم يقتنع بأننى أخاف من لكمات ومقشات أمى.. أكثر من لكمات زكى علاج .. واضطررت لألعب الماتش .. وهزمنى زكى علاج بخفته ، ورشاقته وسرعته على الحلبة .. فقدكان يلعب بطريقة كلاى .. وكنت أنا أعتمد على عضلاتى المتواضعة مثل ليستون !..

وبكى حسين صدقى وسعيد أبو بكر ، وكامل حفناوى والمرحوم عثمان العنتبلى و هم يروننى أتلقى العلقة الساخنة ..

وعدت إلى البيت فوجدت أمى وشقيقى عز الدين وصفى الذين ينتظروننى خلف الباب بالمقشات و القباقيب و ضربونى ضرباً مبرحاً لم أشعر به .. وفى الصباح رفعت أمى اللحاف من على وجهى فرأت مأساتى .. فانهالت بالضرب على شقيقى وهى تصيح فيهما :

- إنتم عاوزين تقتلوه ..

وتناول أحدهما جريدة الأهرام ففوجئ باسمى بين المشتركين فى بطولة الملاكمة .. وكشف لأمى عن سر آثار الضرب التى على وجهى وبرأ نفسه من دمى المسلوب .. واعتزلت أنا الملاكمة ..

فقد كنت أستطيع أن أقاوم بطل وزنى ، ولكننى عجزت تماماً عن مقاومة لكمات و مقشات أمى بطلة العالم فى الوزن الثقيل !..

* * *

opeikandl.com

(أنا.. و النجوم (٨))

* فى سنة ١٩٤٩ قرر « على أمين » أن يدخلنى مستشفى المجاذيب؛ لأمضى فيه شهراً ، ثم أخرج لأكتب أكبر تحقيق صحفى عن الحياة خلف أسوار هذا العالم الغريب ..

واتصل بثلاثة أطباء من الإخصائيين فى الأمراض العقلية .. وأجروا كشفاً دقيقاً علىّ .. ثم كتبوا تقريراً قرروا فيه أننى بصحة جيدة، ثم وضع «على أمين » هذا التقرير فى ظرف وأغلقه بالشمع الأحمر ووضعه في درج مكتبه ، و بعد ذلك أوفدنى إلى عباس العقاد ليتولى معى دراسة المرض الذى سوف أدخل به مستشفى المجاذيب.. وترددت على عباس العقاد لمدة خمسة عشر يوماً.. عرض علىّ خلالها ٥٥ نوعا من المرض العقلى لكى أختار منها واحداً .. ثم بدأ يدربنى على الانفعالات التى سوف أظهرها عند التحاقى بالمستشفى ..

وتمت تجربة العقاد معى بنجاح .. ولكننى ترددت فى آخر دقيقة خوفاًمن أن يذهب عقلى ولا يعود ..

وبعد سنوات التقيت بالعقاد .. و تحدثنا فى هذا الموضوع فقال لى العقاد :

-لو أنك دخلت المستشفى خرجت منه فيلسوفاً أو مجنوناً ..

ولقد اختلطت به بعد ذلك لأستشيره فى أشياء كثيرة .. وكان المخرج وليم ديترلى يرغب فى إخراج فيلم إسلامى عن سورة « الفيل »فبعث لى بخطاب يطلب فيه الترجمة الصحيحة لعبارة « الطير الأبابيل » وحار فى ترجمتها علماءالأزهر فطلبت إلى العقاد الذى ترجمها ببساطة وقال أنها تعنى «حرب الجراثيم » .. (*)

---

* الأخبار ١٩٦٤/٣/١٣

(أنا .. و النجوم (٩))

* لا أدرى لماذا شبهنى رشدى صالح ـ فى يومياته ـ بابن الرومى ..

ولماذا كان كامل الشناوى يشبّهنى هو الآخر بابن الرومى ..

فقد كتب كامل الشناوى منذ عامين يقول إن كليهما له القدرة على الهجاء ورسم الصور الهازلة لمن يهجوهم ، تثير السخرية فيهم والاستخفاف بهم..

فابن الرومى لا يبالى شيئاً عندما يخلو إلى نفسه ، وينظم قصيدة هجاء فإذا ماقابل من هجاه انتابه خجل شديد ..

وكذلك الكاتب الصحفى جليل البندارى ، يهاجم من يشاء بعنف وقسوة فإذا قابل ضحاياه تضرجت وجنتاه بحمرة الخجل ..

ومما يروى عن ابن الرومى أنه مات بسبب طول لسانه ..

فقد شتم بإحدى قصائده وزيراً ، فدعاه الوزير إلى بيته ، ثم دس له السم فى كعكة ، فنهض وهو يتطوح من الألم ..

فسأله الوزير : **إلى أين ؟**

فقال ابن الرومى : **إلى حيث بعثتنى**..

فقال الوزير : **سلم لى على والدى** ..

فأجاب ابن الرومى : **ليس طريقى إلى النار** ..

* * *

وأنا لاأستطيع أن أبرئ نفسى من علاقتى البعيدة بالشاعر العربى القديم ابن الرومى ، فقد تأثرت به ، كما تأثرت بأمى ، وكما تأثرت ببيرم ، والثلاثة كانوا يتميزون بخفة الظل ـ وكانوا يشتمون ـ ولكن بمبرر ..(*)

---

* الأخبار ١٩٦٦/٣/٢..

* مع بونابرت و زينب الجانداركية :

(زينب البكرية)

فى الطريق إلى «زينب البكرية» و «نابليون بونابرت» ضاع بعض عمرى..

وفى الطريق إلى مصر العتيقة التقيت بالدكتور «محمد أنيس» أستاذ التاريخ الحديث .. بجامعة القاهرة و قمنا معاً برحلة إلى الماضى البعيد .. استغرقت منا مائة وسبعين سنة إلى الوراء ..

ثم تخلف «محمد أنيس» عن المشوار الطويل مرتين .. مرة بسبب الأنفلونزا التى حبسته فى غرفة نومه المطلة على مدرسة الأورمان بالدقى .. ومرة بسبب امتحانات الجامعة ..

وفى هذه الرحلة الطويلة التقيت بالمرحوم «أحمد حافظ عوض» .. كما التقيت بالمؤرخ البولاقى العربى المشهور «عبد الرحمن الجبرتى » ..

والتقيت بكثيرين من العلماء والمؤرخين ـ العرب منهم والأجانب ـ وقال كل منهم كلاماً كثيراً .. ولم يكن حديثى معهم جميعاً يتعدى سيرة واحد من اثنين : «زينب البكرية» أو «نابليون بونابرت» ..

وكان أكثرهم ثرثرة عن «بونابرت» بالذات هو الكاتب الألمانى المشهور «إميل لودفيج» ..

وكان أكثرهم ثرثرة عن «زينب البكرية» هو الكاتب والمؤرخ الإنجليزى «دافيد م .بيدو » ..

وفى الطريق إلى بيت السيد « خليل البكرى » بحى الأزبكية بالقاهرة رأيت واحداً من الثوار المصريين ضد الاستعمار الفرنسى واسمه « حسن الأكبر» ، وله شارع يحمل اسمه فى حى عابدين بالقاهرة .. يبصق على عتبة البيت الشريف الذى دنسته « زينب » وعشيقها « بونابرته »!! ..

هكذا كان المصريين ينطقون اسم « نابليون » ..

حتى كبار المتعلمين و المثقفين منهم ، وفى مقدمتهم الشيخ « الجبرتى » نفسه ، لم يكن يكتب اسم بونابرت ، إلا كما ينطقه عامة المصريين ..

ولقد اختلف المؤرخون فى تحليل شخصية زينب البكرية : فمنهم من وصفها بأحط ما توصف به امرأة من كلمات و ألفاظ ، ومنهم من أبى أن يشير إليها إلا من بعيد ، ومنهم من حاول أن ينصفها.. ولكن الشىء الذى لم يختلف فيه المؤرخون قط ، هو أن زينب البكرية كانت عشيقة نابليون ..

ولقد أحسست خلال هذه الرحلة الطويلة – رحلة البحث عن الحقيقة ـ أن زينب لم تكن مجرد عشيقة لنابليون بونابرت.. فقد كان قلبى يشعر دائماً أن وراء هذه الفتاة التى ظلمها التاريخ واحتقرها المؤرخون امرأة عظيمة و سراً عظيماً..

* * *

ولقد صدق إحساسى الذى لايكذب علىَّ إلا فى القليل النادر ، عندما عثرت على بضعة سطور لا تشغل من الكتب والمجلدات التى تشبه الأحجبة إلا حيزاً صغيراً جداً .. ولكنها كانت كافية لأن تطمئن قلبى ، وتريح ضميرى و أنا ألتقى بزينب على ناصية التاريخ ..

إن زينب البكرية لم تكن مجرد عشيقة لبونابرت ولا هى قديسة !! ..

وإنما هى امرأة لعبت دوراً رائعاً فى تاريخ مصر ..

لا تبصقوا على عتبة بيتها ، و لا تقذفوها بالطوب كما فعل أجدادنا .. فقد كانوا حمقى أو لا يعلمون..

فى ذلك الوقت كانت مصر كلها قطعة مشتعلة من الوطنية واللهب والنار..

كان المصريون يثورون على الاستعمار الفرنسى ويقطعون رقاب جنود الاحتلال .. وكان جنرالات نابليون يعاقبون القرية التى تعتدى على جندى واحد من جنود الاحتلال الفرنسى بإحراقها و محوها من الوجود ..

* * *

ولقد بدأت قصة اللقاء الأول بين زينب البكرية و بونابرت فى ظروف غير عادية.. فعندما احتل نابليون الأراضى المصرية .. أصيب المصريون بذعر و لجئوا إلى العلماء و رجال الدين بعد أن فشل المماليك و قادتهم فى صد العدوان الفرنسى ..

و لم يملك أحد العلماء و مشايخ الطرق إلا أن يعتصموا بالجامع الأزهر لقراءة (البخارى) على جنود الاحتلال وقائد الاحتلال ..

* * *

فأصدر الجنرال «ديبوى» قومندان مصر وحاكمها العسكرى أمراً بالقبض على هؤلاء العلماء فوراً ..

ودخل الجنود الفرنسيون بخيولهم الجامع الأزهر ، و قبضوا على عدد كبير من العلماء كان من بينهم الشيخ «سليمان الجوسقى» شيخ طائفة العميان والمدرس بالأزهر .. كما قبضوا على المشايخ «أحمد الشرقاوى» و «عبد الوهاب

الشبراوى» و «يوسف المصيلحى» .. وكان من بينهم نقيب الأشراف «السيد خليل البكرى» ..

وشاهد الناس فى الشوارع هؤلاء العلماء ذوى العمائم البيضاء والخضراء وهم مقيدون بالحبال ، ويساقون كالأغنام إلى سجن القلعة .. وكانت الأوامر تقضى بأن يبيتوا ليلة فى السجن .. وفى الصباح يتم إعدامهم بالبنادق .. وفى الليلة التالية تحمل جثثهم إلى شاطئ النيل بين مصر العتيقة وبولاق لإلقائها فى مياه النهر ..

وترامت إلى زينب البكرية هذه الأنباء عن أبيها ، وكانت كبرى شقيقاتها وأشقائها الصغار ، فكادت أن تجن ..

حاولت أن تراه فى السجن ففشلت .. و ساومها أحد الضباط الفرنسيين ، فأبت و انصرفت وهى دامعة العينين ..

كانت تعلم أن هناك سيدة فرنسية اسمها «بولين» متزوجة من ضابط فرنسى هو الكابتن «فوربس» .. وكانت الإشاعات فى ذلك الوقت قد انتقلت من الجنود الفرنسيين إلى أفراد الشعب المصرى بعلاقة «بولين» ببونابرت .. فسعت زينب إليها تستنجد بها لإنقاذ أبيها الشيخ المسن من السجن و المذلة والمهانة .. والإعدام وإلقاء جثته فى النيل ..

ووعدتها بولين بأنها ستتحدث مع الجنرال فى هذا الشأن ..

وعادت زينب إلى البيت ، وفى الطريق ترامى إليها أن سارى عسكر أو بونابرت قد وقع بصره على قصرين من قصور الأعيان هما «بيت الألفى بك» ، و «بيت البكرى» ليختار منهما مقراً للجنرال «ديبوى» قومندان مصر..

وعلى باب بيتها حاول أحد الجنود الفرنسيين أن يمنعها من الدخول .. فنحته بظهر يدها ودخلت وهى تسرع الخطا .. وجرى الجندى وراءها ليمنعها من الدخول بالقوة .. ولكنه فوجئ بالجنرال يعترض طريقها بنفسه ..

كان نابليون بونابرت قد انتهى من زيارة البيت غرفة غرفة .. فرأى هذه الفتاة المصرية الفاتنة تدخل عليه ، و هى مرفوعة الرأس و تقول له فى كبرياء:

ـ من أذن لك بدخول هذا البيت وسيده غائب ؟

لم يكن نابليون قد تعود هذا الأسلوب فى الحديث من الرجال و النساء على السواء ، فأخذ يتأملها و يفحصها بعينيه محاولاً أن ينفذ إلى أعماقها ، فقد رأى نفسه فجأة أمام لمحة من لمحات الجمال .. زادها غضبها جمالاً وروعة.. ورأى بونابرت إحدى حفيدات نفرتيتى فى ثوب شرقى زادها هو الآخر فتنة فوق فتنة..

وخشى على نفسه من أن يضعف أمام نظرات عينيها السوداوين فقال :

ـ ومن أذن لك أنت بدخول هذا المكان و بونابرت فيه ؟

فقالت زينب :

ـ أنسيت يا سيدى أنك فى بيتى ؟

فتملكت الدهشة نابليون .. وأخذ يتلفت حوله فى حيرة ، ولما لم يجد جواباً خرج مسرعاً دون أن يرد عليها بكلمة واحدة ..

وخرج وراءه جنوده يحاولون اللحاق به .. وعلى الباب قال لأحد جنرالاته: إنه اختار بيت الألفى بك مقراً للحاكم العسكرى ! ..

* * *

أخذ الجنود الفرنسيون يضعون ثلاثة مدافع فى مواجهة البيت المجاور لقصر الألفى بك ، الذى أصبح مقراً للقومندان «ديبوى» حاكم مصر، وهو بيت

«إبراهيم بك الوالى» ..

وتبارى طوبجية نابليون فى هدم البيت ، و تراهن أحدهم مع زميل له على زجاجة نبيذ ، أن يضرب حجراً كبيراً كان ملتصقاً بقصر الحاكم العسكرى ، دون أن يمس بطلقته شعرة من هذا القصر .. وبينما كان هؤلاء الطوبجية يعبثون ببيوت الناس .. كان هناك ضابط برتبة كابتن ينزل من عربة نابليون أمام بيت البكرى وهو يحمل سلة مليئة بالزهورالجميلة ..

ودق الكابتن باب السلاملك فى أدب جم ، فلما فتح له الخادم الباب ، قدم له سلة الزهور وخطاباً مغلقاً ، وقال له إنه ينتظر الرد !..

ورأى السيد «حسن الأكبر» هذا المنظر ، فلم يملك إلا أن يبصق على عتبة البيت ..

ما كادت زينب تفض الظرف حتى وجدت خطاباً من بونابرت كتبه بخط يده : ـ

زينب .. زينب الحلوة ..

إنك ملاك ، و يمكن أن أزعم أن نفسك جميلة كملامحك الجميلة .. إننى آسف لدخولى بيتك دون إذن منك .. هل أطمع فى أن أدخله اليوم لتناول العشاء معاً ؟ .. أرجو ألا ترفضى دعوتى ، فإننى فى غاية الشوق لأتحدث إليك .. لقد نسيت أن أبلغك أن والدك السيد خليل البكرى قد ثبتت براءته من الاتهام وأنه فى الطريق إليك..

«بونابرت»

ما كادت زينب تقرأ هذه الرسالة حتى انتابتها عوامل كثيرة ، ودارت فى رأسها الصغير أسئلة عديدة لم تجد لها جواباً ..

هل تقبل هذه الزهور أو تردها لصاحبها ؟ ..

لو كانت أمها على قيد الحياة لحسمت الموقف!!..

ولكن أمها ماتت منذ عام وتركتها ترعى أباها السيد البكرى وإخوتها الصغار..

ماذا لو قبلت هذه الزهور وفتحت باب البيت لبونابرته ؟!..

من المؤكد أنها ستلطخ عتبة البيت بالعار ، وسوف يقذفها قومها بالطوب و الحجارة ..

إن هذه الزهورالجميلة تعبرعن عواطف سارى عسكر الكبير .. وهى تستطيع أن تلعب دوراً فى تاريخ مصر ، إذا منحت القوة والجسارة على أن تملك حبل الوريد الذى يجرى فيه الدم من قلب نابليون !..

قد تفعل الابتسامة ما لا يستطيع أن يفعله مدفع من مدافع المصريين والمماليك الرابضة على أبواب الجيزة وامبابة ..

هل يمكن أن تفعل شيئاً من أجل مصر ومن أجل قومها الذين يتحولون إلى جثث بطلقة من طلقات مدافعهم السريعة المتحركة ؟..

وما الذى سيقوله عنها عثمان ؟

و بحركة لا شعورية تحسست الدبلة الذهبية فى أصبعها التى تحمل اسم عثمان السلحدار ..

حتى عثمان نفسه انقطعت أخباره عنها بعد أن شُغِل بحركة المقاومة الشعبية تحت قيادة «مراد» بك ..

وتطلعت من نافذة مشربيتها ، فرأت الحرائق ودخانها الأسود الذى يغطى السماء ..

ثم التفتت وراءها فرأت زهور بونابرت فى سلتها الأنيقة تنتظر كلمة من بين شفتيها ..

وظلت تفكر وتفكر وتقلب الأمور على وجوهها المختلفة ، ثم طلبت إلى الخادم أن يناديها بالضابط المنتظر على الباب..

ودخل الكابتن الفرنسى «فوربس» وأدى لها التحية العسكرية ..

قالت له زينب بعد أن ردت تحيته بإيماءة من رأسها :

- قل للجنرال : إنه مدعو للعشاء على مائدتى غداً ..

وأدى الكابتن التحية العسكرية وانصرف..

وأخذت زينب تتأمل الزهورالتى تلقتها من الرجل الذى أحرق قلوب وبيوت المصريين ، فقد كانت تتعجب و تتساءل فيما بينها وبين نفسها .. كيف يمكن أن يحمل مثل هذا الطاغية بين جنبيه إحساساً مرهفاً وقلباً رقيقاً كهذه الزهور ..

اهتزت جدران البيت على طلقة مدفع من المدافع القوية التى كانت تتولى هدم بيت«إبراهيم الوالى»المجاور لمقر القومندان «ديبوى» بحى الأزبكية .. وهى لا تزال تفكر فى مصيرها ، وكيف يمكن أن تروض هذا الأسد الذى بدأ العالم كله يعمل لخطواته ألف حساب ..

وسقطت السلة على الأرض .. وتناثرت زهور بونابرت تحت قدميها ..

* * *

فى مساء ذلك اليوم خرج السيد البكرى من سجن القلعة ، ولم يلحظ الغمزات والإشارات الساخرة التى كان يتبادلها الجنود الفرنسيون من وراء ظهورهم وهم يفتحون له بوابة السجن أو طريق الحرية ..

و مشى الرجل فى الغورية بجبته وقفطانه و عمامته الخضراء يُحيى التجـار والباعة والجالسين فى المقاهى يحتسون الشاى والقهوة ويدخنون النارجيلة .. فكان بعضهم يتظاهر بأنه لم يستمع لتحيته .. وكان البعض الآخر يدير عنه وجهه .. أما الآخرون فكانوا يردون تحيته فى سخرية و بصوت عال :

ـ مساء الورد ..

ولم يفهم السيد خليل البكرى من العبارة ولا العبارات الأخرى شيئاً ، فقد كان يظن أن الناس مبتهجون للإفراج عن كل الأعيان والعلماء والمشايخ .. ولم يكن يدرى أنه الشيخ الوحيد الذى فتحت له بوابة السجن بأمر من سارى عسكر الكبير نفسه ..

* * *

استيقظت زينب من النوم فى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالى .. كانت قد أمضت الليل كله ساهرة تفكر .. إن الأحداث التى تنتظرها أثقل من أن تحتملها كتفاها ..

و أزاحت الناموسية و صفقت بيديها تنادى الخدم فلم يرد عليها أحد ..

كان السكون يخيم على البيت بصورة تدعو إلى الدهشة والعجب.. فنهضت من فراشها كالمذعورة .. و أخذت تلف فى الغرف فوجدت غرفة أبيها كما تركها قبل أن يساق من الأزهر الشريف إلى سجن القلعة .. ورأت غرفة الأطفال خالية منهم حتى ثيابهم لم تكن فى أماكنها ..

وأسرعت إلى المطبخ فوجدت خادمتها صباحية تعد لها وجبة الإفطار :

– أين أبى ؟

وأين الأولاد ؟

أين ذهبوا ؟ ..

هل اختطفهم عفريت أو جن ؟ ..

قالت صباحية :

ـ حتى ثيابهم لم أجدها .. أغلب ظنى أنهم ذهبوا مع السيد ..

ـ وأين هو الآن؟

ـ لا أدرى .. كل الذى علمته أنه بعث إلى المملوك رستم أن يوافيه بأولاده ، ولم يطأ بقدمه عتبة البيت ..

ـ أحدث كل هذا و أنا نائمة؟

ـ نعم ..

ـ ولماذا لم توقظينى من النوم ؟

ـ لأنه أقسم ألا يراك بعد اليوم .

ـ وما الذى جنيت حتى يغضب منى و يترك لى البيت ؟

ـ ربما لأنك تلقيت زهور الجنرال بونابرته ..

ـ وماذا كنت أفعل أمام سارى عسكر الكبير ؟ .. هل كنت أرد زهوره لكى يقتله ويلقى بجثته فى النيل ..

ـ لقد مرّ «حسن الأكبر» من هنا أمس وبصق على الباب ..

ـ وماذا بعد ؟

ـ رآه جنود الفرنسيس وقبضوا عليه ..

ـ مجنون .. وأين المملوك رستم ؟

ـ إنه الوحيد الذى أبى أن يتركك وحدك فى البيت .. لقد ذهب إلى السوق ليشترى الأوزى ويعد العشاء لضيفنا الكبير ..

كان المملوك رستم وفياً لسيدته زينب البكرية وفاء عظيماً .. وعندما عاد السيد خليل البكرى إلى بيته ، وعرف كل شيء من السقا كبيرخدمه .. أقسم ألا يبيتن فى البيت .. و اصطحب معه كل أولاده الصغار وكل الخدم والجوارى.. ولم يعص أوامره سوى رستم وصباحية ..

وعاد المملوك رستم من السوق بعربة يد محملة بالأوزى والأطعمة المختلفة.. واشترى نارجيلة من الكهرمان الفاتح اللون مرصعة بالذهب والحجر اليمانى والعقيق .. أما فمها فكان مرصعاً بفصوص من الماس ..

و تهيأ رستم ليعد الوليمة التى دعا نفسه إليها الجنرال سارى عسكر الكبير نابليون بونابرته ..

* * *